

مشكلة أسبانيا

لا يقتصر التاريخ في أسبانيا على أن يعيد نفسه كما يقولون ، بل إنه يعيد نفسه مراراً ويناقض نفسه تكراراً . فما من بلد تواترت أحداثه وتشابهت ، وتباينت آراء أهله وتناقضت ، مثل أسبانيا بما حفل به تاريخها من ثورات وحروب وتطورات متشابهة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وهل هناك بلد مثل أسبانيا ازدهر فيه الإسلام ونمت أصوله وفروعه وانتشرت آدابه وعلومه ونُفذت أحكامه وتعاليمه أكثر من خمسمائة عام ، ثم لم يكد المسلمون يبعدون عن البلاد على أثر ارتدادهم أمام هجمات الإمارات المسيحية الناهضة في شمال أسبانيا حتى غشيت البلاد صيحة الكنيسة الكاثوليكية ، فلكت على الناس عقولهم وتحكمت في آرائهم وحریاتهم ، ونشطت بين ظهرانهم محاكم التفتيش فقضت على ألوف الأبرياء من المسلمين واليهود والمسيحيين الأحرار ، لا لذنوب اقترفوه سوى أنهم أطلقوا لأنفسهم حرية الفكر والاعتقاد مخالفين بذلك الوحدة الدينية الكاثوليكية التي اعتنقها الناس وتضافرت الكنيسة والحكومة على تحقيقها ولو أدى ذلك إلى إحراق الأفراد ومحاربة الشعوب .

وهل مثل أسبانيا أمة واتها الفرصة فامتلكت في أوربا الأراضي المنخفضة ونابلي والبرتغال ، ووافها الحظ السعيد فكشف لها كرسstof كولب عن أمريكا وصارت إليها خيرات الدنيا الجديدة وما في أرضها من ذهب وفضة ومعادن أخرى احتكرت أسبانيا استخراجها ونقلها إلى بلادها ، حتى أصبحت في فترة وجيزة سيدة البحار وأكثر بلاد العالم مالا وأعز نفراً . ولكن ما كاد أهل البلاد يرتعون في مجبوحة هذا النعيم وذلك الثراء المفاجيء حتى أخذوا إلى الدعة والبذخ وأسرفوا في الاستهلاك بقدر ما أهملوا في الإنتاج ، واستولى عليهم الفرور فاستكبروا وظنوا أن محاكم التفتيش قد تيسر لهم الوحدة السياسية كما يسرت لهم الوحدة الدينية ، فأقاموها في الأراضي المنخفضة لمحاكمة الثوار الذين

آزرتهم إنجلترا . وما هي إلا سنوات قلائل حتى تحرك أسطول أسبانيا العظيم المعروف « بالآرامادا » يغزو سواحل إنجلترا ، فكانت الهزيمة الماحقة وكان السقوط والانحدار من شامخ المجد إلى الدرك الأسفل .

وبقدر ما كان ارتفاع أسبانيا خاطفاً وعظيماً كذلك كان اضمحلالها شاملاً وسريعاً ، فجعلت تفقد ممتلكاتها واحدة تلو أخرى ، مبتدئة بالأراضي المنخفضة والبرتغال في القرن السابع عشر ، ثم بنابلي في أوائل القرن الثامن عشر ، وما انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت أسبانيا قد خسرت مستعمراتها في أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية ، ولم يبق لها سوى جزر الفلبين في الشرق الأقصى ، وكوبا وبورتوريكو في أمريكا . وهذه البقية لم تلبث أن وقعت أيضاً غنيمة سهلة في يد الولايات المتحدة عقب انتصارها في الحرب الأمريكية الأسبانية في نهاية القرن الماضي .

على أن أسبانيا على رغم ما أصابها من ركود وضعف وخمول لم تزل طوال تلك القرون إلى الآن مصدراً لآزمات دولية حادة أدت في أكثر من مرة إلى إثارة الحروب بين الدول .

١ — ففي سنة ١٧٠٠ مات شارل الثاني آخر ملوك أسرة هابسبرج في أسبانيا دون أن يعقب من يخلفه ، فقامت بين الدول حرب ضروس هي حرب الوراثة الأسبانية التي استمرت إلى سنة ١٧١٣ ، وفيها وقعت قلعة جبل طارق الشهيرة في أيدي الإنجليز ، وانتهت الحرب بأن اعتلى عرش أسبانيا أمير من أسرة البوربون هو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ومن ثم نشأت الصلة الوثيقة التي ربطت بين أسبانيا وفرنسا إلى زمن قريب .

٢ — وفي سنة ١٨٠٨ صمم نابليون وكان في أوج سلطانه على التدخل في شؤون أسبانيا وتعيين أخيه يوسف ملكاً عليها ، فأسر ملكها فرديناند السابع ودخلت قواته مدريد ، وقام الشعب الأسباني بأول ثورة قومية في أوروبا ضد نابليون ؛ فكانت هذه مقدمة نهضة شعوب أوروبا ضد النظام الذي فرضه نابليون عليها بالقوة .

٣ — وفي سنة ١٨٢٢ قامت في أسبانيا ثورة عسكرية ضد فرديناند السابع لحثه في يمينه وعدم احترامه لدستور سنة ١٨١٢ الذي وضعه الثوار ، فاستنجد فرديناند بمؤتمر الدول الذي انعقد في فيرونا ، فقامت فرنسا بقمع الثورة ودخل

٤ - وفي سنة ١٨٣٣ مات الملك فرديناند السابع ولم يعقب سوى ابنة صغيرة ، فانقسمت أسبانيا إلى معسكرين عظيمين جعلاً يتنازعان السيطرة في البلاد : حزب يناصر الملكة الصغيرة إيزابلا الثانية ومعهما أمها ماريّا كرستينا الوصية على العرش ، وحزب يناصر أخوا الملك دون كارلوس الذي اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في التاج مستنداً إلى أن النساء ليس من حقهن أن يعتلين العرش . وكان الجيش وأهل المدن والأحرار عامة ينتمون إلى الملكة ومن وراءهم الحكومتان الفرنسية والإنجليزية ، وكان رجال الدين والأشراف والفلاحون يناصرون دون كارلوس وتسدّم الحكومات الرجعية في وسط أوروبا . ومن ثمة شبت أول حرب أهلية في البلاد ، فعست القوضى وملئت البلاد رعباً ، وأخذ كلا الجانبين يتنافسان في التنكيل بمعارضيهن وصب الكوارث على رءوسهم حتى أقفرت البلاد ووقف دولاّب الأعمال . واستمر هذا التطاحن الخيف ست سنوات انتهت بانسحاب الكارلوسيين ، وبقيت الملكتان وبطاطهما يقترفون من الشرور والآثام ما لطخ التاج الأسباني بالوحل وذنسه بالعار .

٥ - وفي سنة ١٨٦٨ ثار الشعب على الملكة إيزابلافنيت من أسبانيا ، وسارعت أسرة هو هنزلرن في بروسيا إلى ترشيح أمير من أمرائها لاعتلاء عرش أسبانيا . فما كاد هذا الخبر يصل إلى مسامع نابليون الثالث إمبراطور فرنسا حتى ثارت نائرتة وخاف أن تصبح فرنسا محصورة بين نارين تشعلهما أسرة هو هنزلرن من بروسيا شرقاً ومن أسبانيا جنوباً ، فكلّف سفيره في برلين أن يحتج على هذا الأمر وأن يطلب إلى ملك بروسيا أن يسحب ترشيح الأمير البروسي رسمياً ، وأن يعدّ بعدم ترشيح أمير بروسيا لعرش أسبانيا مرة أخرى . وكان هذا الموقف داعياً إلى إثارة الحرب الفرنسية البروسية التي انتهت بهزيمة فرنسا وكانت من أقوى البواعث على إثارة الحرب العالمية الأولى .

ولقد استعادت أسبانيا عقب الحرب الفرنسية البروسية أسرته الملكية بعد تجربة قصيرة لحكم الجمهورية الأولى ، فأقامت سنة ١٨٧٤ الفونس الثاني عشر ابن الملكة إيزابلا ملكاً عليها ، وكان على نقيض أسلافه ملكاً مصلحاً اكتسب وهو في المنفى مع أمه خبرة وصلابة ودرسا ، فبدأ في أسبانيا عهد

مشكلة أسبانيا

إصلاحات شملت جميع مرافق البلاد ، وأهمها توطيد الأمن بالقضاء على العصابات الكارلوسية ، وتهدة العناصر المتطرفة باعادة الدستور والحكم البرلماني وإصلاح مالية البلاد والنهوض بالصناعة والتجارة . ولما مات في سنة ١٨٨٥ كانت شؤون البلاد الداخلية والخارجية قد استقرت بدرجة ساعدت الملكة الوصية على مواصلة العمل في جو هادئ لم تفسده الثورات والانقلابات . ولم يخلف الملك في حياته وارثا للعرش ، ولكن حدث بعد وفاته بسنة أشهر أن وضعت الملكة وارثا ذكراً هو الفونس الثالث عشر .

واستمرت حركة الإصلاحات يقوم بها الوطنيون من الأحرار والمحافظين الذين جعلوا يتناوبون الحكم تباعا ، وقدموا لوطنهم في تلك الفترة أجل الخدمات . ومع أن الحرب الأمريكية الأسبانية التي نشبت في سنة ١٨٩٨ قد انتهت بضياع أملاك أسبانيا في عرض البحار كما قدمنا ، فإن هزيمة أسبانيا وإذلالها في نظر الدول قد خلق في الأسبان روحا جديدة حفزتهم إلى العمل بعزيمة صادقة للنهوض من كبوتهم واستعادة تالدهم . وما هي إلا سنوات قلائل حتى زحرت أسبانيا بطائفة من كبار الكتاب والعلماء والمؤرخين والفنانين . وافتتحت المناجم ووفدت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية ، فقامت المصانع والمعامل وراجت الأسواق . وبعد أن كانت أسبانيا ركناً منعزلا في جنوب أوروبا الغربي لا تكاد الدول تحس وجوده بل تراه جزءاً خاملاً أقرب صلة بإفريقية منه بأوروبا ، عادت أسبانيا في أوائل القرن العشرين أمة عزيزة الجانب لها مكاتبا بين الدول . فلم يكدينشب الخلاف بين الدول بشأن مراکش حتى وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن تعقد معاهدة مع أسبانيا في سنة ١٩٠٤ كما عقدت معاهدة الاتفاق الودي مع إنجلترا . واعترفت فرنسا لآسبانيا في تلك المعاهدة بامتداد نفوذها في المنطقة الشمالية الغربية من مراکش ، وفيها ميناء سبتة ذات الموقع الاستراتيجي الخطير أمام جبل طارق .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى احتفظت أسبانيا بمحيديتها ، ونالت من وراء ذلك كسباً مادياً ودولياً ، إذ نشطت فيها حركة التجارة والنقل وخطبت ودها الدول المتحاربة . وكانت الحكومة ورجال الأعمال والطبقات الوسطى تميل إلى جانب الحلفاء على حين كان رجال الجيش والكنيسة ينحازون إلى جانب ألمانيا . فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء كانت أسبانيا في مقدمة الدول التي

مشكلة أسبانيا

دعيت لتأسيس عصبة الأمم، وأخذ شأنها الدولي يكبر حتى فازت بمقعد في مجلس العصبة .

غير أن انتصار المبادئ الديمقراطية بعد الحرب وظهور الحركة البلشفية في روسيا واطراد تقدم البلاد من الوجهتين الصناعية والعمالية ، قد أدى إلى انتشار المبادئ الاشتراكية في بيئات المدن الصناعية ، فترج إلى البلاد عدد من الفوضويين ونشأت جماعات متطرفة نادت بالجمهورية وإلغاء الرهينة والأديار والجماعات الدينية الكاثوليكية ، وتضاعف عدد هذه الجماعات المتطرفة في أسبانيا على أثر تأميم التعليم في فرنسا ومنع رجال الدين من مزاولته ، كما زادت ثورة البرتغال ضد الملكية في سنة ١٩١٠ قوة إلى قوتهم . وقد تقافت الحال وازدادت سوءاً بسبب اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ومحاولتهم تنفيذ رغباتهم بالقوة ، وكان لما أصاب الجيش من الخزي والتخاذل أمام قبائل الريف في مراكش الأسبانية أثره في نشوء حركات في داخل الجيش . يضاف إلى ذلك ظهور الخلافات المتأصلة بين أهل الشمال وهم سكان المناطق الصناعية وأهل الجنوب وهم المشتغلون بالزراعة ، ثم رغبة إقليم كتالونيا في شمال شرقي أسبانيا في الانفصال عن أسبانيا ، وهو إقليم له لغته وتاريخه واقتصادياته وفيه ميناء برشلونة المشهور . ويبلغ عدد سكان هذا الإقليم ستة ملايين من مجموع سكان أسبانيا الذي يبلغ ٢٥ مليوناً .

لكل ذلك لم يكن عجيباً أن يعم السخط والتمرد ، وأن تكثر الاعتداءات على الملك وعلى الوزراء — وقد اغتيل منهم في هذه الفترة عدد غير قليل — وأن يشتد النزاع بين الحكومة ورجال الدين ، وبينها وبين جمعيات الجيش الدفاعية . وقد دعا ذلك كله في النهاية إلى ظهور الدكتاتور الأسباني الأول بريمو ده ريفيرا Primo de Rivera في سنة ١٩٢٣ .

وقد كان ده ريفيرا قائداً حريياً لمنطقة كتالونيا ، وكان معروفاً بكفائته وغيرته الوطنية ، فنادى بالثورة على الحكومة وهدد الوزراء باعتقالهم إذا لم يتخلوا عن مراكزهم . وجاء الملك من مصيفه في سان سبستيان وعينه رئيساً للحكومة ، وأطلق عليها حكومة الإدارة ، فألغى الوزارات وعطل الدستور وأعلن الأحكام العرفية مع ما يقتضيه ذلك من منع المظاهرات وفرض رقابة شديدة على الصحف . وقد سار ده ريفيرا في حكمه سيراً حكماً أنجز فيه إصلاحات شاملة وبخاصة في نظام الجيش وفي مراكش وفي ناحية الأشغال العامة والعمال . وفي هذه الفترة

زار الملك الفونسو إيطاليا ومعه ده ريفيرا ، واستمدا من الدوتشى العون والبركة لنجاح الدكتاتورية في أسبانيا ، وعقدت بين البلدين معاهدة صداقة كانت أول توجيه دولى لسياسة أسبانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى .

واستمر ده ريفيرا يعمل دون أن يحد من سلطانه دستور أو برلمان صحيح مدة سبع سنوات . وأخيراً استيقظ الوعي الأسبانى وعادت إليه سليقته ، فثار على النظام الملكى الدكتاتورى ، فسقط ده ريفيرا ، ونفى الملك الفونسو من البلاد بعد أن حُرِمَ حقوقه المدنية . وقامت حكومة جمهورية فى سنة ١٩٣١ وكان رجالها مشبعين بالمبادئ الاشتراكية ، فأعادوا الدستور ، وحرروا التعليم لأول مرة من سلطان رجال الكنيسة ، وأدخلوا إصلاحات اجتماعية بشأن توزيع الأراضي وتنظيم العمل . وكان الاعتدال رائدهم فى أول الأمر فسارت الأمور سيراً شعبياً مرضياً . ولكن الاعتدال أمر لا يوافق أمزجة الأسبان ولا يتلاءم مع طبيعة البلاد الجبلية وجوها القارى ، فهم دائماً مسوقون إلى التطرف والمغالاة والتقلب من خمول واستسلام إلى ثورة وعنف وتخريب ، ثم من الثورة والعنف إلى الخمول والاستسلام مرة أخرى ، وهكذا دواليك . وليس بين كل تقيضين من هذه النقائص إلا فترة وجيزة يستجمون فيها ويستعدون لدورة أخرى . لذلك لم يكن غريباً أن ينتصر حزب اليسار من الجمهوريين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ وأن تظهر آثار التطرف الجديد فى عدايمهم للكنيسة ومصادرتهم لأملأكها وتعرضهم لحرية العبادة ولحقوق كبار الملاك وغير ذلك ، مما جعل الناس يعتقدون أن الحكومة الجديدة إنما تعمل على إقحام البلاد فى نطاق النظام الشيوعى ، وهو نظام إن وافق أهواء أهل المدن والأقاليم الصناعية مثل كتالونيا فانه غريب على كثرة الشعب الذين درجوا فى أحضان الكنيسة وعاشوا فى ظل الإقطاع دهوراً طويلة .

وعلى ذلك تجمعت العناصر التى أذكت نيران الثورة الوطنية العسكرية بزعامة فرنكو ضد نظام الجمهورية . وكان زعيم الثورة ، على ماجرى به العرف فى تاريخ أسبانيا ، من ضباط الجيش . وكان فرنكومتولياً رياسة أركان حرب الجيش وحاكماً على جزر قناريا أو الخالدات فى أغسطس سنة ١٩٣٦ حين طار إلى تطوان فى مراكش الأسبانية ليرأس الثورة . وقد انضم إليه جميع ضباط الجيش ونصف قوات الأسطول . وفى أكتوبر سنة ١٩٣٦ أعلن فرنكو نفسه رئيساً للدولة ،

وأخذ ينظم حكومته على أساس دكتاتورى فاشستى ، وقد انضمت إليه الأقاليم الواقعة جنوبى أسبانيا ووسطها وشمالها الغربى ، أما الشرق والشمال الشرقى فظل مواليا للحكومة الجمهورية ، وقد استعاضت الحكومة عن الجيش بتسليح العمال وأفراد الشعب .

وسرعان ما تحولت الحرب الأهلية فى أسبانيا إلى مظهر من مظاهر الكفاح الدولى بين المبادئ الفاشستية التى يمثلها فرنكو ومن ورائه إيطاليا وألمانيا وبين المبادئ الاشتراكية الدولية التى عرفت فى ذلك الوقت بالجبهة الشعبية وتمثلها حكومة الجمهورية وتؤازرها فرنسا وروسيا . وكان تأييد الدول للمعسكرين المتحاربين فى أسبانيا نظرياً وسرياً فى أول الأمر ، ثم أخذ هذا الميل يتحول تدريجاً إلى حرب حقيقية لا ينقصها سوى الإعلان الرسمى ، فكانت إيطاليا ترسل إلى فرنكو جيوشها ومدافعها ، وألمانيا تمده بدباباتها وطائراتها ومهندسيها وعمالها الفنيين . وكانت فرنسا شديدة العطف على الجمهوريين فأرسلت لمؤازرتهم الكتيبة الدولية ، وكذلك روسيا كانت عظمة الاهتمام بمصائر الجمهوريين فأمدتهم بالأسلحة والطائرات . ولكن شتان بين ما كانت ترسله إيطاليا وألمانيا وما كانت تستطيعه روسيا بسبب المسافات الشاسعة التى تفصل روسيا عن أسبانيا . لذلك تفوقت قوات فرانكو وأخذت تستولى على معاقل الجمهوريين حصناً بعد حصن ، حتى سقطت مدريد فى ابريل سنة ١٩٣٩ بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وقد حالفهم النصر لتفوقهم فى الطائرات والمدفعية والتغذية . ولما استتب الأمر لفرنكو غادر زعماء الجمهوريين البلاد وتفرقوا بين فرنسا وأمريكا اللاتينية . ولم يسع الدول فى آخر الأمر سوى الاعتراف بحكومة الجنرال فرنكو .

وقد سار فرنكو فى حكمة سيرة فاشستية ، فألف حزب الفلانج Falange على نمط الحزب الفاشستى فى إيطاليا ، وجمع فى يده السلطات كلها ، ولكنه انتهج فى سياسته خطة وطنية بحجة راعى فيها مصلحة أسبانيا قبل كل شىء . فقد حاولت دولتا المحور ضم أسبانيا إليهما فى محالفة عسكرية فاعتذر فرنكو بنقص استعداده وعدم كفاية موارده ، وآثر أن تبقى أسبانيا وهى لا تزال فى دور النقص بعيدة عن مزالق السياسة الدولية مكتفياً بموافقته على ميثاق مكافحة الشيوعية فى مايو سنة ١٩٣٩ . ومما دال على سياسة فرنكو الوطنية أنه لم يلق

مشكلة أسبانيا

بالأى إلى رغبة إيطاليا فى ضم إحدى جزر البليار إليها لتتخذها قاعدة لتمرقل منها نشاط فرنسا وإنجلترا فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكد فرنكو خطته الاستقلالية عندما أعلنت الحرب العالمية الثانية . ورأى مع بالغ الدهشة أن هتلر قد تعاقد مع روسيا البلشفية التى كانت تناهض ثورة الوطنيين الإسبان ، فسارع فرنكو بإعلان حيدة أسبانيا . فلما انقلب هتلر على روسيا وهاجها فى صيف سنة ١٩٤١ ، لم ير فرنكو بدءاً من الاستجابة إلى رغبة حزبه فى الانتقام من روسيا ، فأرسل الفرقة الزرقاء من متطوعى الإسبان للقتال فى الميدان الشرقى إلى جانب الألمان ، وبذلك أُرصد فرنكو لأسبانيا فى ذمة روسيا دينياً ثقيلًا من المقت والبغض والعداوة .

ولم يكن ميل كثرة الإسبان فى هذه الحرب كما كان فى الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء ، بل كان ميل الرأى العام الوطنى ، على العكس ، إلى جانب دول المحور . ومع ذلك لم يضعف فرنكو أمام ألمانيا المنتصرة التى احتلت فرنسا ، ولم يبق ثمة ما يفصلها عن أسبانيا سوى جبال البرانس . ولو أن ألمانيا فى ذلك الوقت اخترقت شبه جزيرة إيبيريا لهددت جبل طارق ، ولتعتذر على الحلفاء أن يتزلوا بجيوشهم على ساحل إفريقية الشمالى لمناهضة قوات رومل . وتدل الوثائق التى نشرتها الولايات المتحدة أخيراً على أن اتفاق فرنكو مع دولتى المحور كان قيد البحث ، وأنه طالب بجبل طارق ومراكش الفرنسية ثمناً لانضمامه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، واكتفى هتلر بأن اتخذ من سواحل أسبانيا مخابئاً للغواصات الألمانية ومحطات تتغذى منها سفنها وطائراتها .

ويقول فرنكو فى الدفاع عن خطته أنه عاون الفرنسيين الأحرار أيضاً فى اثناء الاحتلال الألمانى ، ولم يحل دون اتصالهم بساحل إفريقية الشمالى . وكل ما استفادته أسبانيا من انحلال فرنسا أنها أعلنت انتهاء النظام الدولى فى طنجة وضمته إلى حكمها .

ولم تلاحظ فى أفق الدول المتحاربة بوادر النصر ، بدأ فرنكو يستمع إلى رغباتهم ، فأبطل تصدير بعض المعادن التى كانت تفيد منها ألمانيا عسكرياً ، وأبعد « سيرانو سوز » وزير خارجيته المتطرف فى مبادئه الفاشستية ، وحاول أن يستغفر لخطاياها الماضية ولكن بدون جدوى ؛ فقد ظلت تهمة الفاشستية لاصقة به ، وما نشبت الحرب إلا للقضاء على النظم النازية والفاشستية . وإذن فلم يكن

هناك معنى وقد انتصرت المبادئ الديمقراطية لإبقاء الحلفاء على دولة فاشستية قد تصبح بعد قليل من الزمن عشاً تبيض فيه النازية وتفرخ من جديد . لذلك لم يدع الحلفاء فرصة لإعلان مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة في أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بنيت أسبانيا بمعزل عن مجموعة الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا في طنجة ، وكاد الروس ينجحون في ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمي الحرب .

والآن تبدو مشكلة أسبانيا معقدة غاية التعقيد ؛ فإن الجمهوريين من الأسبان قد استفلوا الفرصة الدولية الحالية وأنشأوا لهم في المكسيك حكومة جمهورية رئيسها « باريوس » Barrios ورئيس حكومتها « جيرال » Giral من وزراء أسبانيا السابقين . وتجمع الجمهوريون أخيراً جنوبي فرنسا عند « تولوز » وأخذوا يترصبون الفرص للزحف عبر البرانس على أسبانيا ، وهم يعدون خططهم سرّاً وعلانية لقلب حكومة فرنكو دون حاجة إلى إراقة الدماء كما يقولون . ولكن كيف يكون ذلك ؟ وإلى جانب الجمهوريين هناك الملكيون ، وهم قد نشطوا كذلك نشاطاً عظيماً ، وانتقل الأمير « دون جوان » بن الفونس الثالث عشر المطالب بالعرش من سويسرا إلى إنجلترا ومنها إلى البرتغال ، واتخذ له ولأتباعه مقرّاً قريباً من لشبونة حيث استقبله سفير أسبانيا وهو شقيق فرنكو . والجنرال فرنكو لا يعادى الملكية في أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد في سنة ١٩٣٨ الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو . ويقولون إن هناك اتفاقاً سريّاً على أن تعود الملكية إلى أسبانيا في الوقت الذي يراه فرنكو مناسباً

وتختلف الدول فيما بينها على طريقة التخلص من حكومة فرنكو : ففرنسا وروسيا تريدان العمل المباشر ضد فرنكو بواسطة هيئة الأمم المتحدة . أما بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الديمقراطية فإنها تصرح بأرائها ضد فرنكو ولكنها لا تريد أن تقبّع القول بالعمل وتفضّل أن يقوم الشعب الأسباني باختيار الحكومة التي توافق إرادته في ظل استفتاء برلماني صحيح .

وقد أعلن مستر بيشن وزير خارجية إنجلترا عند ما تولت وزارة العمال الحكم « إن نظام الحكم في أسبانيا مسألة تخص الشعب الأسباني . . . وإن أى تعرض

من جانب الدول لشؤونها الداخلية لا بد أن يثير الشعب الأسباني ويجعله يؤيد فرنكو في موقفه ضد هذا التدخل الأجنبي . وجاء في البيان الثلاثي الذي أرسلته إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى أسبانيا في أوائل مارس أنه « ليس في النية التعرض لشؤون أسبانيا الداخلية ، فإن على الشعب الأسباني نفسه أن يعمل لتكييف مصيره » .

وأضعف حلقة في نظام فرنكو أنه وليد التدخل الأجنبي ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب لحكمه . وإن حكومة لا تستند في حكمها على رغبة الشعب الحقيقية لا تستحق أن تعيش . ومع ذلك فهناهم أولاء الجمهوريون يلوذون بحكومتى فرنسا وروسيا ويستصر ونهما على حكومة فرنكو . وها نحن أولاء نرى حكومة فرنسا لا تكتفي بإرسال البيان الثلاثي ، بل تنفرد فتعلن أسبانيا بأن الحدود بين البلدين مغلقة ، وها هو ذا فرنكو يستثير حماسة الشعب فيرد على الإنذار بمثله ويلعن إغلاق الحدود بينه وبين فرنسا ، ويزيد على ذلك حشد جيش عظيم من حزب الفلانج لحراسة الحدود .

وأغلب الظن أن فرنسا لن تترك أسبانيا حرة في تنظيم بيتها ؛ لأن فرنسا لا تزال تعتبر أسبانيا امتداداً جغرافياً لها ، ولأنه يهيمها أن تصون المواصلات بينها وبين مستعمراتها في شمال إفريقيا عن طريق أسبانيا برّاً وجزر البليار التابعة لأسبانيا بحراً . فإذا لم تكن حكومة أسبانيا موالية لفرنسا تعرضت مواصلات فرنسا ومصالحها الحربية في أوروبا وإفريقية لأعظم الخطر .

ولكننا نشك في أن تستطيع فرنسا الآن وهي في مرحلة دقيقة من تاريخها أن تؤيد الجمهوريين في أسبانيا بالقوة ، لا سيما أنها تعرف أن جيش فرنكو لا تنقصه الكفاية أو الاستعداد . والجمهوريون وحدهم غير قادرين على قهر فرنكو ما لم يتجه البندول الوطني في أسبانيا نحو الثورة . فهل استجيب الشعب الأسباني واستعاد نشاطه إلى الدرجة التي تدعوه إلى تكرار مأساة سنة ١٩٣٦ ؟ وإذا تكررت المأساة ولم ينتصر فيها فرانكو فهل هناك ما يمنع أن تدور الحلقة المفرغة دورتها ويظهر فرانكو آخر من جديد ؟ هذه هي مشكلة أسبانيا .